العرب
الأربعاء 2020/08/26
السنة 43 العدد 11801

لبنان المنكوب ثلاث مرات

بهاء العوام
صحافي سوري

مر لبنان بعد استقلاله بثلاث نكبات كبيرة، كل منها هيأت للتالية والثالثة لا تزال مستمرة حتى الآن. انفجار مرفأ بيروت، الذي وقع في الرابع من أغسطس 2020، ليس واحدة من النكبات وإنما هو فصل من فصول النكبة الثالثة. ربما يكون الأكثر بشاعة، ولكنه لن يكون الأخير إن بقيت الأسباب.

نكبة لبنان الأولى كانت في الحرب الأهلية التي امتدت على كامل أراضيه لأكثر من خمسة عشر عاما بين 1975 و1990. وقد أسفرت هذه الحرب عن مقتل مئة وعشرين ألف شخص ونزوح ما يقرب من مليون نسمة. أما نهايتها فكانت عبر اتفاق أوقف الحرب ولكنه ثبّت الطائفية وأطلق العنان للنكبة الثانية.

خلال الأعوام الخمسة عشر اللاحقة للحرب عاش لبنان تحت الوصاية "الهيمنة" السورية. وكانت هذه هي النكبة الثانية التي ألمت به، فنظام الأسد الأب والابن، ليس وصيا ديمقراطيا. وكان يفضل ألا يغادر أبدا، لولا أنه أجبر على ذلك في العام 2005، تاركا لبنان تحت وصاية أكثر سوءا، ونكبة أكثر خرابا.

> حزب الله يقف دائما ضد أي محاولة لتحييد الدولة وتجنيبها استقطابات المنطقة بأكملها. وكيف يقبل الحزب بحياد لبنان الذي تحول إلى ميناء إيران على المتوسط

نكبة لبنان الثالثة بدأت عندما تولى حزب الله زمام المبادرة وأخذ البلاد رهينة بحجة مقاومة إسرائيل. وبعد عقدين من "المقاومة" اكتشف اللبنانيون أنهم استبدلوا الاحتلال الإسرائيلي بآخر إيراني. فالحزب سيطر على الدولة نيابة عن نظام الخميني وربط مصير البشر والحجر بولاية الفقيه في طهران.

يتحمل حزب الله وزر كل ما يجري في لبنان منذ خروج القوات السورية. فقد وقف دائما ضد أي محاولة لتحييد الدولة الصغيرة وتجنيبها استقطابات المنطقة بأكملها. وكيف يقبل الحزب بحياد لبنان الذي تحول إلى ميناء إيران على المتوسط. وسلمت مفاتيح عاصمته للمرشد صاحب الأمر والولاية.

لم تنته التحقيقات في ملابسات انفجار مرفأ بيروت، وقد تستمر لأعوام بين شد وجذب، لكنها في النهاية ستقول إن لحزب الله يدا أو إصبعا في ما حدث. يستحيل أن تقع مصيبة في لبنان اليوم دون أن يظهر في خلفية المشهد موظف أو برلماني أو تاجر أو مسلح أو وزير أو منظر أو عسس لحزب الله.

في محكمة رفيق الحريري مثال واضح للموت الذي يمكن أن يجلبه الحزب إلى لبنان دون أن يكترث لأحد أو يخشى لومة لائم. فقاتل رئيس الوزراء الأسبق هو "قديس" من وجهة نظر الحزب و"القديسون" في فلسفة الولي الفقيه يتولون مهمة التخلص من خصوم الدولة الخمينية والمعارضين لمشيئتها.

كثير من "قديسي" الحزب نشروا الموت في سوريا والعراق واليمن ثم عادوا أبطالا إلى لبنان. كان من بين ضحاياهم هناك أطفال ونساء وكبار في السن لم يحملوا سلاحا أبدا، وإنما تظاهروا من أجل التحرر من أنظمة استبدادية أو طالبوا بخروج إيران من بلدانهم بعد أن احتلتها بميليشيات حزب الله وأخوته.

ولأن لبنان تحول إلى إمارة للحزب بقديسيه وعسسه وأبواقه وأدواته تورط بأزمات لا ناقة له فيها ولا جمل. كما تحول إلى ساحة من ساحات الحرب بين إيران وأميركا. فطهران تصر على أن تبقى بيروت واحدة من العواصم العربية التابعة لها، في حين أن واشنطن تلح على عودة الخمينيين إلى حدود بلادهم.

بين الخصمين يشكو اللبنانيون حالهم المزري اقتصاديا وسياسيا وعندما يحتجون يواجهون حزب الله في الشارع والبرلمان والحكومة والرئاسة، ويجدونه معطلا لكل شيء قد يدفع بالحياة إلى الأمام، فلا يقبل بأي حل لأي أزمة لا يناسب ولاية الفقيه ويصور كل مبادرة غربية على أنها مكيدة تحاك ضده.

صحيح أن الغرب لن يقدم دعما مجانيا، لكن مهما كان الثمن سيبدو هزيلا مقابل إنهاء هيمنة حزب الله المستمرة على البلاد منذ أكثر من خمسة عشر عاما. بالنسبة للبنانيين لن يكون هناك أهم من إنهاء النكبة الثالثة التي أوصلتهم إلى ذلك الحضيض الذي يعيشون فيه اليوم على كافة الأصعدة والمستويات.

عندما يطالب الآلاف من اللبنانيين بعودة الانتداب الفرنسي إلى بلادهم، فهذا يشير إلى أنهم ضاقوا ذرعا بهيمنة حزب الله. وعندما ترفع صور حسن نصرالله على المشانق في الساحات العامة إلى جانب أمراء الحرب الأهلية وفرسان النكبة الأولى والثانية، فهذا يعني أن كذبة المقاومة قد كشفت وانتهى مفعولها.

يحتاج اللبنانيون إلى التحرر من هيمنة حزب الله لطي صفحات النكبات الثلاث التي مروا بها، فهذه الهيمنة تمد رموز النكبتين السابقتين بالحياة إلى الآن، لأنهم يطرحون أنفسهم كمنقذين لطوائفهم وأتباعهم من بلطجة الحزب وسجنه الدولة كلها على ذمة اتهامات لمعارضي "الثورة الخمينية" بالعمالة للغرب.

لبنان المنكوب اليوم هو لبنان حزب الله. وكل من يتحالف مع الحزب أو يدافع عن "مقاومته"، يؤيد استمرار هذه النكبة. لا حاجة لمزيد من التضليل والخديعة. يعرف الجميع أن الحزب بات يضع رئيسي الدولة والحكومة، ويخط المصائر والسياسات، ومن يفعل كل هذا يجب أن يتحمل عاقبة التداعيات.

الكويت تساعد لبنان... ولبنان لا يساعد نفسه

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

تعهّدت دولة الكويت بإعادة بناء الإهراءات التي دمّرها تفجير ميناء بيروت في الرابع من آب – أغسطس الجاري. ترمز الإهراءات، التي يخزن فيها القمح، إلى ما حل من دمار بميناء بيروت وبقسم من المدينة. لم يبق من الإهراءات، التي بنتها الكويت أصلا، سوى هيكلها. يشبه هذا الهيكل، ذلك الذي آل إليه لبنان في السنة 2020.

لا يقف لبنان معزولا في مواجهة الكارثة التي ألمّت به والتي دمّرت نصف بيروت تقريبا. هناك بالفعل من يرغب في مساعدة لبنان في ضوء ما حلّ بالعاصمة وأهلها... المشكلة أنّ لبنان يرفض أن يقف إلى جانب لبنان وأن يساعد نفسه. لبنان مصرّ في "عهد حزب الله" على عزل نفسه عن العرب والعالم. وهذا ما يفسّر خروج البطريرك الماروني بشارة الراعي عن صمته ابتداء من الخامس من تموز – يوليو الماضي، أي قبل شهر من تفجير ميناء بيروت، وإطلاقه دعوة إلى "حياد" لبنان لعلّ ذلك يساعد في إنقاذ ما يمكن إنقاذه. يبدو أخطر ما في كلام البطريرك الماروني، الذي استعاد الدور الذي يفترض به لعبه على الصعيد الوطني، تحذيره الأخير من مخازن الأسلحة المنتشرة في كلّ أنحاء لبنان والتي تجعل من البلد كلّه قنبلة قابلة للانفجار في أيّ لحظة.

توجد قصة عطف كويتي على لبنان. القصّة قديمة ومبنيّة على الخير والمودّة وليس على إرسال أسلحة إلى لبنان كما فعلت إيران وفعل آخرون استثمروا في حروب اللبنانيين بين بعضهم وفي حروب الآخرين على أرض لبنان، وهي حروب كان الفلسطينيون شركاء فيها لفترة طويلة.

هناك ما هو أكثر من العطف الكويتي، هناك شعور حقيقي بمخاطر مشتركة بين اللبنانيين الحقيقيين والكويتيين عموما. يظلّ أفضل تعبير عن ذلك الإصرار الكويتي على إعادة بناء إهراءات ميناء بيروت التي افتتحت بحضور الأمير الراحل الشيخ صباح السالم الصباح في العام 1970. تعيد الكويت بناء الإهراءات في وقت تعاني من مشاكل مالية في أساسها هبوط سعر النفط ووباء كوفيد – 19 الذي انتشر في البلد.

عايش قصة العطف الكويتي على لبنان جميع أمراء الكويت. في مقدّم الذين اهتموا بلبنان الأمير الحالي الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح الذي ربطته علاقة خاصة بلبنان واللبنانيين وشارك في معظم الجهود التي استهدفت إخراج لبنان من أزماته، خصوصا في المرحلة التي امتدت بين 1975 و1989 عندما وقّع اتفاق الطائف. لم تكن الكويت بعيدة يوما عن لبنان، كانت في اللجنة الرباعية التي ضمت لبنان وسوريا والكويت والمملكة العربية السعودية، وهي اللجنة التي عملت طويلا في مرحلة ما قبل الطائف من أجل الحؤول دون انهيار لبنان وتحقيق تسوية داخلية. كان صباح الأحمد وزيرا للخارجية وكان الأمير سعود الفيصل وزيرا للخارجية السعودية. كان عليهما الاجتماع باللبنانيين والسوريين في مرحلة ما قبل الاجتياح الإسرائيلي وبعده لتهدئة الوضع والحد قدر الإمكان من الخسائر اللبنانية في ظلّ نظام سوري لم يكن لديه ما يفعله سوى الاستثمار في الانقسامات بين اللبنانيين وزيادتها.

لدى العودة إلى العلاقة التاريخية بين بلدين صغيرين في المنطقة ربطت بينهما علاقات من النوع الذي يصعب فكه، نجد للأسف الشديد أنّ لبنان ليس في وضع يسمح له بالاستفادة من أيّ مساعدة من أيّ نوع. ما ستبنيه الكويت هو ما سبق وبنته. في السابع من آب – أغسطس 1968، وقّع عبدالرحمن سالم العتيقي وكان وقتذاك وزيرا للمال ومدير الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية مع نظيره اللبناني اتفاق بناء الإهراءات أو الصوامع. كان في لبنان وقتذاك مسؤولون يمكن الاتكال عليهم...

في ستينات القرن الماضي وسبعيناته، كان نصف الشعب الكويتي يمضي الصيف في لبنان. كان الكويتيون في كلّ مكان، خصوصا في بحمدون وعاليه وحمّانا وفالوغا. مع الوقت تعمّقت العلاقات اللبنانية الكويتية أكثر فأكثر. عاد الكويتيون إلى لبنان بعدما أعاد رفيق الحريري بناء بيروت في أوائل تسعينات القرن الماضي. استثمروا في كلّ القطاعات اللبنانية وليس في العقارات فقط. صار الكويتيون موجودين في قلب عدّة مصارف لبنانية. خسروا أموالهم مع اللبنانيين الذين وجدوا أنفسهم فقراء بين ليلة وضحاها.

> هل لا يزال في الإمكان عمل شيء للبنان... أم أن البلد لا يمكن أن يكون أكثر من ورقة إيرانية في لعبة تتجاوزه

ليست المسألة مسألة إعادة بناء الإهراءات في ميناء بيروت. المسألة أبعد من ذلك بكثير. المسألة مسألة إعادة تعويم لبنان. لا شكّ أنّ الكويت مشكورة على كلّ ما فعلته. أثبتت مرّة أخرى تقديرها للصداقة القائمة مع لبنان. لكنّ السؤال الذي سيطرح نفسه في نهاية المطاف: هل لا يزال في الإمكان عمل شيء للبنان... أم أنّ البلد لا يمكن أن يكون أكثر من ورقة إيرانية في لعبة تتجاوزه؟ هذا أمر يثير مخاوف كبيرة، خصوصا بعدما تبيّن أن رئيس الجمهورية ميشال عون لا يريد العمل من أجل تشكيل حكومة جديدة. على العكس من ذلك، نجده يماطل في إجراء الاستشارات النيابية الملزمة التي تسمح لمجلس النوّاب باختيار من يكون رئيس مجلس الوزراء.

من الواضح أن العالم مهتمّ بلبنان. هذا ما أكّده الرئيس إيمانويل ماكرون الذي سارع إلى المجيء إلى بيروت مباشرة بعد كارثة تفجير الميناء. كان تحذيره إلى المسؤولين اللبنانيين في غاية الوضوح. دعاهم إلى تشكيل حكومة سريعا وإلى مباشرة الإصلاحات. المؤسف أن ماكرون يمكن أن يعود إلى بيروت في اليوم الأوّل من أيلول – سبتمبر المقبل في ذكرى احتفال لبنان بذكرى مرور مئة عام على قيام "لبنان الكبير"، أي لبنان بحدوده الحالية.

كيف يمكن أن تكون هناك ثقة ببلد يحتفل بالذكرى المئوية لقيامه من دون حكومة؟ هل من دليل أهمّ من هذا الدليل على أن لبنان دولة فاشلة بعدما صار همّ رئيس الجمهورية محصورا بإيجاد طريقة يكون فيه صهره جبران باسيل في الحكومة؟ ليس تفجير ميناء بيروت وحده الذي دمّر لبنان. اللبنانيون هم الذين دمّروا لبنان. لم تفعل الكويت، عبر إبداء استعدادها لإعادة بناء إهراءات الميناء، سوى توجيه تحذير آخر إلى كلّ من يهمّه أمر لبنان. فحوى هذا التحذير، على غرار التحذير الفرنسي، أنّ الخارج يحبّ لبنان وهو مستعد لمساعدته شرط أن يوجد في لبنان من يريد الخير للبنان وليس تحويل البلد إلى مجرّد ورقة إيرانية عن سابق تصوّر وتصميم...